

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الاجتماعية
شعبة الفلسفة

دروس في التصوف الإسلامي

محاضرات مقدمة للسنة الأولى طور ماستر
تخصص: فلسفة عربية وإسلامية

إعداد: د. مرزوق خالد

السنة الجامعية: 1443 هـ - 1444 هـ / 2021 م - 2022 م

بطاقة فنية للمادة	
التصوف الإسلامي	عنوان المادة:
وحدة تعليم أساسية	عنوان الوحدة:
السداسي الثاني	سداسي التكوين:
05	رصيد المادة:
03	المعامل:
إطلاع الطلبة على نشأة التصوف الإسلامي، وأبرز مباحثه. المعارف المسبقة المطلوبة: التصوف في الثقافات الشرقية القديمة، الفلسفة اليونانية، الفلسفة الإسلامية	من أهداف التعليم:
التصوف في الثقافات الشرقية القديمة، الفلسفة اليونانية، الفلسفة الإسلامية	المعارف المسبقة المطلوبة:
مراقبة مستمرة، امتحان.... إلخ (يُترك الترجيح للسلطة التقديرية لفريق التكوين)	طريقة التقييم:

		مقدمة
		1. مدخل مفاهيمي للتصوف
		2. إشكالية مصادر التصوف الإسلامي
		3. عوامل نشأة التصوف الإسلامي.
		4. حقيقة الصراع بين الفقهاء والصوفية
		5. المنهج الذوقي (الجنيد، الحلاج،)
		6. وحدة الوجود (ابن عربي، الجيللي،)
		7. العشق الإلهي عند الصوفية (رابعة العدوية، ابن الفارض)
		8. فلسفة التربية عند الصوفية: الرفاعي، الشاذلي..)
		9. كبرى الطرق الصوفية في الجزائر والعالم الإسلامي (القادرية، التيجانية، العلاوية، الرحمانية، الشاذلية....)
		10. امتدادات التصوف الإسلامي في الغرب

مقدمة

الحمد لله الواحد التواب، والصلاة والسلام على النبي الأواب، وعلى الآل والأصحاب، وبعد:

فإن التصوف يشكل ثابتاً من ثوابت الأمة الإسلامية، وأحد روافد الهوية الدينية في بعدها الوسطي والأخلاقي، إلى جانب باقي الثوابت الأخرى من المذاهب الفقهية والعقدية، وبذلك، فإن التصوف الجندي (نسبة إلى سيد الطائفة الصوفية أبو القاسم الجنيد البغدادي) يعد مكوناً أساسياً من مكونات الهوية مشرقاً ومغرباً، يستحق الدراسة والبحث والتحليل، وخاصة في السياق المعاصر، حيث تدافع الثقافات وتقاطع الهويات، وحاجة المجتمعات إلى الاستقرار والتنمية.

ويركز في العمل هنا على التصوف الإسلامي، ببيان بعض الإشكالات الواردة حول مفاهيمه ومصادره وطرقه، وكذا الموقف منه في الداخل والخارج، من أجل العمل على اقتراح اندماج ممكن للتصوف في عالم اليوم، والإسهام بفعالية في تخليق الحياة العامة ببث روح القيم التي تميز المسلمين على مر العصور، وكان للتصوف دور في تحصينها.

وقد عهدت لي إدارة قسم العلوم الاجتماعية – مشكورة- تدريس مقياس: التصوف الإسلامي، لتكوين طلبة الماجستير⁰¹ تخصص فلسفة عربية وإسلامية، والعمل على وضع مفرداته ما أمكنني ذلك على القدر الذي يمتد به الوقت والجهد. ولست أرى الوظيفة سهلة في مثل هذا الوقت اليسير، نظراً لتعدد الطرق الصوفية وتنوع أفكارها ومفاهيمها، بل وتداخلها أيضاً، فالمطلوب أكثر بكثير من الواقع لي والحاصل عندي، ولكني أجمعت عزمي على أن أنهض بها، لأكون أول المستفيدين، ومفيداً لطلبتنا الكرام بما أتيح لي.

وإنني أستعين الله في تقديم مادة يسيرة يتجدد ثوبها كل عام، مادة لا يستغني عنها الباحث الناشئ، متحريراً الموضوعية ما استطعت في عرض آراء أعلام التصوف السني...، دون أن أعمد إلى نسبة ما يخالف أقوالهم، ومتحاشياً الاستطراد لما يقتضيه البرنامج المسطر في عرض التكوين من جهة، ولما تسمح به طبيعة هذا المقرر.

وأرجو من الطلبة الأعزاء الذين نسند لهم مسؤولية النقد والتمحيص لما يستقبل من الزمان ألا يألوا جهدهم في تهذيب أو تكميل كلما سنحت لهم الفرصة، وألا يبخلوا عنا بملاحظاتهم مشكورين مأجورين، واعتذر عن شناعة الفهم والخطأ، والله ولي كل توفيق.

المحاضرة الأولى:

مدخل مفاهيمي للتصوف الإسلامي

1- في دلالة المصطلح (لغة واصطلاحاً):

يتطلب بيان دلالة مصطلح (التصوف الإسلامي) فصل هذا المركب اللفظي عن أجزائه الأولية، والنظر في مفهوم اللفظ جوهر المسألة (التصوف)، ثم إضافة لفظ (الإسلامي) لاستجلاء المعنى المراد.

1-1- التصوف في اللغة Mysticism :

لم يذكر أصحاب المعاجم اللغوية اشتقاقاً لكلمة التصوف إلا ما قدمه صاحب المصباح المنير الذي ذكر الكلمة ، وقال إنها كلمة مولدة ((تصوف الرجل وهو صوفي من قوم صوفية كلمة مولدة.¹

1-2- اشتقاقات لفظ (التصوف) واستعمالاتها:

نذكر ها هنا طائفة من الأقوال في وجوه تسمية: الصوفية صوفية، والتصوف تصوفاً، منها ما ذكره الكلاباذي، ننقل نصه كما هو فيما يلي²:

قيل: سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها، ونقاء آثارها.

وقال بشر بن الحارث: الصوفي: من صفا قلبه لله.

وقال بعضهم: الصوفي: من صفت لله معاملته، فصفت له من الله ﷻ كرامته.

وقال قوم: إنما سمو صوفية: لأنهم في الصف الأول بين يدي الله ﷻ؛ بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم بقلوبهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.

وقال قوم: إنما سمو صوفية: لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصُّفَّة، الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

وقال قوم: إنما سمو صوفية: للبسهم الصوف.

وأما من نسبهم إلى الصُّفَّة والصوف: فإنه عبر عن ظاهر أحوالهم؛ وذلك أنهم قوم قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان، وهجروا الأخدان، وساحوا في البلاد، وأجاعوا الأكباد، وأعرّوا الأجساد، لم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه من ستر عورة، وسد جوعة. فلخرجهم عن الأوطان سمو: غرباء. ولكثرة أسفارهم سمو: سياحين.

1 الفيومي احمد بن محمد ، المصباح المنير ، مكتبة لبنان ، بيروت ، لبنان ، د ط ، 1987 ، 134.

2 ينظر مجموع هذه الأقوال: الكلاباذي أبو بكر، التعرف لمذهب أهل التصوف، الباب الأول (قولهم في الصوفية: لم سميت الصوفية صوفية). وعماد الدين جميل الحسيني، حقيقة التصوف الاسلامي، شركة دار المشاريع، بيروت-

لبنان، ط1، 2013م، 15-23.

وأهل الشام سموهم: "جوعية"؛ لأنهم إنما ينالون من الطعام قدر ما يقيم الصلب للضرورة؛ كما قال النبي ﷺ: {بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه}.

وقال السري السقطي - ووصفهم - فقال: "أكلهم أكل المرضى، ونومهم نوم الغرقى، وكلامهم كلام الخرقى". ومن تخليهم عن الأملاك سموا: فقراء؛ قيل لبعضهم: من الصوفي؟ قال: "الذي لا يملك ولا يملك" يعنى: لا يسترقه الطمع. وقال آخر: "هو الذي لا يملك شيئا، وإن ملكه بذله".

ومن لبسهم وزيمهم سموا: "صوفية"؛ لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس ما لأن مسه، وحسن منظره، وإنما لبسوا لستر العورة، فتجزوا بالخشن من الشعر، والغليظ من الصوف.

ثم هذه كلها: أحوال أهل الصُّفَّة، الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ؛ فإنهم كانوا غرباء فقراء مهاجرين، أخرجوا من ديارهم وأموالهم، ووصفهم أبو هريرة وفضالة بن عبيد فقالا: يخرون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين، وكان لباسهم الصوف حتى إن كان بعضهم يعرق فيه فيوجد منه ريح الضأن إذا أصابه المطر، هذا وصف بعضهم لهم، حتى قال عيينة بن حصن للنبي ﷺ: إنه ليؤذيني ريح هؤلاء، أما يؤذك ريحهم؟! ثم الصوف: لباس الأنبياء، وزى الأولياء.

وقال أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ: {إنه مر بالصخرة من الرِّوْحاء سبعون نَبِيًّا، حفاة، عليهم العَبَاء، يؤمون البيت العتيق}.

وقال الحسن البصري: كان عيسى عليه السلام يلبس الشَّعر، ويأكل من الشجرة، ويبيت حيث أمسى.

وقال أبو موسى: كان النبي ﷺ يلبس الصوف، ويركب الحمار، ويأتي مدعاة الضعيف.

وقال الحسن البصري: لقد أدركت سبعين بدريا، ما كان لباسهم إلا الصوف.

فلما كانت هذه الطائفة بصفة "أهل الصفة" فيما ذكرنا، ولبسهم وزيمهم زي أهلها، سموا "صُفِّيَّة"، و"صوفية".

ومن نسبهم إلى الصُّفَّة والصف الأول: فإنه عبر عن أسرارهم وبواطنهم؛ وذلك أن من ترك الدنيا وزهد فيها وأعرض عنها، صفَّى الله سره، ونور قلبه.

قال النبي ﷺ: {إذ دخل النور في القلب انشرح وانفسح}، قيل: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: {التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله}، فأخبر النبي ﷺ أن من تجافى عن الدنيا نور الله قلبه.

وقال حارثه حين سأله النبي ﷺ: {ما حقيقة إيمانك؟} قال: عزفت بنفسي عن الدنيا، فأظلمات نهاري، وأسهرت ليلي، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتعادون، فأخبر أنه لما عزف عن الدنيا، نور الله قلبه، فكان ما غاب منه بمنزلة ما يشاهده.

وقال النبي ﷺ: {من أحب أن ينظر إلى عبد نور الله قلبه، فليُنظر إلى حارثة}، فأخبر أنه منور القلب. وسميت هذه الطائفة: نوريه؛ "لهذه الأوصاف، وهذا أيضا من أوصاف أهل الصفة؛ قال الله تعالى {فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين}، والتطهر: بالظواهر عن الأنجاس، وبالبواطن عن الأهجاس وما يتحرك في الضمير من الخواطر. وقال الله تعالى: {رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله}.

ثم لصفاء أسرارهم تصدق فراستهم؛ قال أبو أمامة الباهلي ؓ عن النبي ﷺ: {اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله}. وقال أبو بكر الصديق ؓ: ألقى في روعي: أن ذا بطن بنت خارجة "، فكان كما قال. وقال النبي ﷺ: {إن الحق لينطق على لسان عمر}.

وقال أويس القرني لهرم بن حيان - حين سلم عليه -: وعليك السلام يا هرم بن حيان "، ولم يكن رآه قبل ذلك! ثم قال له: عرف روعي روحك ".

وقال أبو عبد الله الأنطاكي: إذا جالستم أهل الصدق، فجالسوهم بالصدق؛ فإنهم جواسيس القلوب، يدخلون في أسراركم، ويخرجون من هممكم ".

ثم من كان بهذه الصفة (من صفوة سره، وطهارة قلبه، ونور صدره): فهو في الصف الأول؛ لأن هذه أوصاف السابقين.

قال النبي ﷺ: {يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب}، ثم وصفهم وقال: {الذين لا يرقون ولا يسترقون، ولا يكوون ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون}، فلصفاء أسرارهم وشرح صدورهم وضياء قلوبهم، صحت معارفهم بالله، فلم يرجعوا إلى الأسباب، ثقة بالله ﷻ، وتوكلا عليه، ورضا بقضائه. فقد اجتمعت هذه الأوصاف كلها، ومعاني هذه الأسماء كلها، في أسامي القوم وألقابهم، وصحت هذه العبارات، وقربت هذه المأخذ.

وإن كانت هذه الألفاظ متغيرة في الظاهر، فإن المعاني متفقة؛ لأنها إن أخذت من "الصفاء والصفوة" كانت صَفَوِيَّة، وإن أضيفت إلى "الصفِّ أو الصُّفَّة" كانت صَقِيَّة أو صُقِيَّة. ويجوز أن يكون تقديم "الواو" على "الفاء" في لفظ "الصوفية"، وزيادتها في لفظ "الصَقِيَّة والصُقِيَّة": إنما كانت من تداول الألسن.

وإن جعل مأخذه من "الصوف": استقام اللفظ، وصحت العبارة: من حيث اللغة، وجميع المعاني كلها (من التخلي عن الدنيا، وعزوف النفس عنها، وترك الأوطان، ولزوم الأسفار، ومنع النفوس حظوظها، وصفاء المعاملات، وصفوة الأسرار، وانشراح الصدور، وصفة السباق).

وقال بندار بن الحسين: الصوفي: من اختاره الحق لنفسه فصافاه، وعن نفسه برأه، ولم يرده إلى تعمل وتكلف بدعوى. و" صُوفي ": على زنة عُوُفي، أي: عافاه الله فعوفي، وكوفي، أي: كافاه الله فكوفي، وجوزي، أي: جازاه الله؛ ففعل الله به ظاهر في اسمه، والله المتفرد به ".

وقال أبو علي الرّوذباري - وسئل عن الصوفي - فقال: من لبس الصوف على الصفاء، وأطعم الهوى ذوق الجفاء، وكانت الدنيا منه على القفا، وسلك منهاج المصطفى ".

وسئل سهل بن عبد الله التستري: من الصوفي؟ فقال: من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر ". وسئل أبو الحسن النوري: ما التصوف؟ فقال: ترك كل حظ للنفس ".

وسئل الجنيد عن التصوف؟ فقال: تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة "

وقال يوسف بي الحسين: لكل أمة صَفْوَة، وهم وديعة الله الذين أخفاهم عن خلقه، فإن يكن منهم في هذه الأمة: فهم الصوفية ".

1-3- التصوف اصطلاحاً:

من حيث الاصطلاح لا يوجد اتفاق على تعريف أو تعريفات متقاربة يمكنها أن تلمّ بجوانب هذا العلم، ذلك لأن البعض من الدارسين نظر في تعريفه لحال الصوفي وسلوكه، وبعضهم ينظر إلى الأصل اللغوي للكلمة واشتقاقاتها، والبعض الآخر ينظر إلى الحال الخارجي التي يتلبس بها الشخص، بمعنى نسبته إليه لللبسه الصوف¹.

وقد عرّفه التهانوي بأنه هو: " التخلق بالأخلاق الإلهية، والوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطناً فيرى حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال، وهو تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية و مجانبة الدعاوى النفسانية، و منازلة الصفات الروحانية، و التعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو

1 محمود عبد الرزاق، قراءة التصوف في المدرسة الفرنسية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بنغازي، 2012-

أولى على السرمدية، والنصح لجميع الأمة و الوفاء ل تعالى على الحقيقة ، و إتباع رسوله وسلم في الشريعة"¹.

كما نجد له في تعريفه اصطلاحاً لدى البعض ملمحاً نفسياً، فلسفياً ودينياً، من ذلك أنه عبّر عنه بكونه: "حالة نفسية يشعر فيها المرء بأنه على اتصال بمبدأ أسى ، أو هو : نزعة تعول على الخيال والعاطفة أكثر مما تعول على العقل والتجربة الحسية ، أو هو : علم القلوب الذي يبحث في أحوال النفس الباطنة ، ويسعى إلى تصفية القلوب والتطهير والتجربة ويؤدي إلى الاتصال بالعالم العلوي"².

كما أطلق إما على الاعتقادات أو المعتقدات التي تقوم على المشاهدة والاستدلال العقلي، إما على الاعتقادات أو المعتقدات التي تقلل من شأن الواقع الحسي أو ترفضه ، لصالح واقع لا تدركه الحواس³.

وبذلك يندرج التصوف تحت التيار العقلي المستند على الاستدلالات العقلية، ومستبعداً الإدراك الحسي، فلكي يشطح العقل كان لزاماً عليه التخلص من قيد الحواس فمعرفة العقل تفضي بناء إلى العرفان الذي هو درجة من درجات التصوف لا يمكن إدراكه بالحس.

وعرّف كذلك على أنه قسم من علم الشريعة؛ فهو علم يدل على الأعمال الباطنة ويدعو إليها، والأعمال الباطنة هي أعمال القلوب، أي أنه كما قيل في وصفه: محاولة اكتساب المعرفة الحقيقية خلال الطريق الباطني الموصل إلى فناء الصوفي في الله. وسمي هذا العلم التصوف، وسمي المتصوفون أنفسهم أرباب الحقائق وأهل الباطن، وسموا من عداهم أهل الظواهر وأهل الرسوم. ويعد هذا تعريفاً للتصوف من خلال التجارب والأحوال الشخصية التي قد يمر بها المتصوف في تجربته الصوفية⁴.

(تتبع وترفق بقية المحاضرات لاحقاً- إن شاء الله تعالى-)

1 علي التهانوي ، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون و العلوم، 456-457.

2 مجمع اللغة العربية ، المعجم الفلسفي ، المطابع الأميرية ، القاهرة ، مصر ، د ط ، 1983م ، 46. وابن قيم الجوزية، مدارج السالكين ، ج ، 2، مرجع سابق ، 64.

3 اندريه لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية ، ج ، 2، خليل احمد خليل ، منشورات عويدات ، بيروت ، لبنان ، ط2، 2001م، 849.

4 مراد وهبة ، المعجم الفلسفي ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، مصر ، ط 1979، 3م ، ص111 . مراد هوفمان ، الإسلام كبديل ، ت عادل المعلم ، دار الشروق ، القاهرة ، مصر ، ط 1997، 1م ، ص55.